حِكْمَةُ القِيَادَةِ النَّبَوِيَّة في غزوات الإسلام الكبرى

د. خليفة حامد محمد أحمد(*)

مستخلص البحث:

قام الباحث بإلقاء الضوء على نماذج من حكمة قيادة النبي صلى الله عليه وسلم، في غزوات الإسلام الكبرى، وهي بدر وأحد والخندق. وقد بين الباحث التصرفات الحكيمة للنبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوات مقارناً ذلك بحال المسلمين اليوم، وبين الباحث أهمية تنزيل هذه الحكمة النبوية على حياة المسلمين في العصر الحالي، وقد أبرز الباحث نتائج هامة للدراسة.

Abstract

The researcher highlights examples of the wise leadership of the noble Prophet - peace be upon him - as reflected in the events of the major conquests of Islam; namely Badr, Uhud and the Trench.

The researcher calls upon contemporary Muslims to follow their Prophet's example, and concluded his study with some important results and recommendations.

(*) أستاذ مساعد، كلية أصول الدين، جامعة امدرمان الإسلامية، السودان.

مقدِّمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه السادات، وبعد،،،

فإنَّ الاهتمام بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم وتصرفاته لاسيما الحربية منها، لهو من صميم الاقتداء به صلى الله عليه وسلم، والاهتداء بهديه، لذلك اخترت لهذا البحث عنوان حكمة القيادة النبوية في غزوات الإسلام الكبرى، لعل هذه القيادة النبوية السمحة تطبق في واقعنا المعاصر، وتخلصنا من دنس التقليد الأعمى، الذي أُبتليت به الأُمة، والذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ»[1]، فحقاً صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فها هي الأُمة تتشبه بالغرب في كل شيء، في اللبس، والاقتصاد، والعادات والتقاليد، وغير ذلك، وما ذلك إلا للبُعد عن الهَدي النبوي الذي إن اهتدينا به يكون لنا مخرجاً وفرجاً. وقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته، وسائر تصرفاته، لأنها وحي من الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[2]، كما أمرنا الله بطاعته، وقرن طاعته بطاعة رسوله ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[3]، ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا (فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ

(1) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم، 103/9ح7320 عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه.

(2) سورة النجم الآيات: 3-4.

(3) سورة النساء الآية: 69.

الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)[1]، وأسأل الله أن يوفق المسلمين إلى ما فيه الخير والصلاح، وما التوفيق إلا بالله.

وقسمت هذا البحث إلى المباحث والمطالب التالية:

المبحث الأول: قيادته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر.

المطلب الأول: عقد المجلس الاستشاري بعد إفلات العيرمن قبضة المسلمين.

المطلب الثاني: الحصول على أهم المعلومات عن جيش مكة.

المطلب الثالث: النزول في أهم المراكز العسكرية وتعبئة الجيش.

المطلب الرابع: تسوية الصفوف والتضرع إلى الله بالنصر.

المطلب الخامس: اختيار أقاربه للمبارزة في أول المعركة.

المبحث الثاني: قيادته صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد.

المطلب الأول: عقد المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع.

المطلب الثانى: تقسيم الجيش إلى كتائب واستعراضه.

المطلب الثالث: اختيار الطريق الآمن لسير الجند.

المطلب الرابع: رسم أنجع خطة للدفاع.

المطلب الخامس: تدبيره بعد تطويق المشركين المسلمين.

المبحث الثالث: قيادته صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب.

المطلب الأول: خطته لمجابهة الأحزاب.

المطلب الثاني: حفر الخندق.

المطلب الثالث: موقفه بعد نقض بني قريظة العهد.

* وقد استخدمت المنهج التحليلي الوصفي، والتزمت فيه بالآتي:

(1) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ح 4607 عن العرباض بن سارية رضى الله عنه.

[1] الآيات القرآنية وثقت لها في صلب البحث، مع التزام نسخها من المصحف الإلكتروني.

[2] عزوت الأحاديث النبوية إلى مصادرها الأصلية التي أخرجتها، واقتصرت في ذلك على كتابة اسم الكتاب الذي أُخرج فيه الحديث، ثم كتابة اسم الكتاب الذي يوجد به الحديث، يليه اسم الباب الذي يحوي الحديث، ثم رقم الحديث.

[3] بدأت تعليقاتي بلفظ قلت، وأما تعليقات العلماء الآخرين فقد ذكرت أسماءهم عند إيرادها.

[4] جعلت توثيق المادة العلمية في نهاية البحث، وذلك بكتابة اسم المصدر المنقول عنه، والجزء والصفحة، أو الصفحة فقط إن لم يكن المصدر مجزءاً.

المبحث الأول

قيادته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر

بعد ما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام إلى المدينة، وأذن الله له بالقتال بدأ يرسل السرايا إلى قريش، حتى يتعرف المسلمون على الطرق المؤدية إلى مكة، وإشعار مشركي مكة وأعراب البادية حولها بأن المسلمين أقوياء.

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلاً بعير قريش من الشام، ندب المسلمين إليها، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك لأنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً، وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار، حتى علم من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه

للاستيلاء على العير، فأستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة ليخبر قريشاً بذلك، وأن يخرجوا لحماية عيرهم، فخرجوا، ثم إن أبا سفيان نجا بالعير، وأخبر قريشاً بنجاته وأمرهم بالرجوع، ولكن قريشاً أصرت على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه، فدارت المعركة[1].

قال الدكتور محمد سعيد البوطى: تنطوي غزوة بدر الكبرى على دروس وعظات جليلة، ونحن نجمل هذه الدلائل والدروس فيما يلي:

يدلنا السبب الأول لغزوة بدر على أن الدافع الأصلي لخروج المسلمين مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم، لم يكن القتال والحرب، وإنما كان الدافع قصد الاستيلاء على عير قريش القادمة من الشام تحت إشراف أبي سفيان، غير أن الله تبارك وتعالى أراد لعباده غنيمة أكبر، ونصراً أعظم، وعملاً أشرف، وأكثر توافقاً مع الغاية التي ينبغي أن يقصدها المسلم في حياته كلها، فأبعد عنهم العير التي كانوا يطلبونها، وأبدلهم بها نفيراً لم يكونوا يتوقعونه، وفي هذا دليل على أمرين:

الأمر الأول: أن عامة ممتلكات الحربيين تعدّ بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة، فلهم أن يستولوا عليها، ويأخذوا ما امتدت إليه أيديهم منها، وما وقع تحت يدهم من ذلك عدَّ ملكاً لهم.

وهو حكم متفق عليه عند عامة الفقهاء، على أن للمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم في مكة عذراً آخر في القصد إلى أخذ عير قريش والاستيلاء عليها، وهو محاولة التعويض- أو شيء من التعويض- عن ممتلكاتهم التي بقيت في مكة، واستولى عليها المشركون من ورائهم.

(1) البداية والنهاية، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مكتبة المعارف بيروت، 257/3، بتصرف.

الأمر الثاني: أنه على الرغم من مشروعية هذا القصد، فإن الله تعالى أراد لعباده المؤمنين قصداً أرفع من ذلك، وأليق بوظيفتهم التي خلقوا من أجلها، ألا، وهي الدعوة إلى دين الله، والجهاد في سبيل ذلك، والتضحية بالروح والمال في سبيل إعلاء كلمة الله. ومن هنا كان النصر العظيم حليف أبي سفيان في النجاة بتجارته، بمقدار ما كانت الهزيمة العظيمة حليف قريش في ميدان الجهاد بينهم وبين المسلمين. وإن هذه التربية الإلهية لنفوس المسلمين لتتجلى بأبرز صورها في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]،[2].

المطلب الأول: عقد المجلس الاستشاري بعد إفلات العير من قبضة المسلمين:

بعد أن نقلت استخبارات جيش المدينة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر العير والنفير، وتأكد لديه أنه لم يبق مجال لاجتناب اللقاء الدامي، وأنه لابد من إقدام يبنى على الشجاعة، فمما لاشك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة، يكون ذلك تدعيماً لمكانة قريش العسكرية، وامتداداً لسلطانها السياسي، وإضعافاً لكلمة المسلمين، وتوهيناً لها، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسداً لا روح فيه، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام فى هذه المنطقة.

ونظراً إلى هذا التطور الخطير المفاجئ عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً عسكرياً استشارياً أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه

(1) سورة الأنفال الآية: 7.

(2) انظر فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطى، 159/1.

الرأي مع عامة جيشه وقادته، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، أمض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1]، ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق، لوسرت بنا إلى برك الغماد[2] لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، ودعا له به.

وهؤلاء القادة الثلاثة هم من المهاجرين، وهم أقلية في الجيش، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرف رأي قادة الأنصار، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء الثلاثة "شيروا على أيها الناس"، وإنما يريد الأنصار، وفطن لذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ، فقال: والله لكأنك تريدنا يارسول الله؟ قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فأمض يا رسول الله لما أردت، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، ونكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونشطه

(1) سورة المائدة الآية: 24.

(2) برك الغماد: تفتح الباء وتكسر وتضم الغين وتكسر، وهو اسم موضع باليمن، انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزرى، المكتبة العلمية، بيروت، تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحى، 306/1.

ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله وعدن إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم[1].

قال الدكتور محمد سعيد البوطي: وعندما نتأمل كيف كان يجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى أصحابه ليشاورهم في الأمر الذي فوجئوا به بعد أن أفلتت منهم العير، وطلع عليهم النفير العظيم المدجج بالسلاح الكامل، نقف على دلالتين شرعيتين لكل منهما أهمية بالغة:

الدلالة الأولى: التزامه صلّى الله عليه وسلم بمبدأ التشاور مع أصحابه، وإذا استعرضنا حياته صلّى الله عليه وسلم، وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ في كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى، مما له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية، ومن أجل هذا أجمع المسلمون على أن الشورى في كل ما لم يثبت فيه نص ملزم من كتاب أو سنّة، أساس تشريعي دائم لا يجوز إهماله. أما ما ثبت فيه نص من الكتاب أو حديث من السّنة أبرم به الرسول صلّى الله عليه وسلم حكمه، فلا شأن للشورى فيه، ولا ينبغي أن يقضي عليه بأيّ سلطان.

الدلالة الثانية: خضوع حالات الغزو والمعاهدات والصلح بين المسلمين وغيرهم لما يسمى بالسياسة الشرعية، أو ما يسميه بعضهم بـ(حكم الإمامة). وبيان ذلك أن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل، حكم تبليغي لا يخضع لأي نسخ أو تبديل، كما أن أصل مشروعية الصلح والمعاهدات ثابت لا يجوز إبطاله أو اجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية. غير أن جزئيات الصور التطبيقية المختلفة لذلك، تخضع لحالة الزمان والمكان وحالة المسلمين وحالة أعدائهم، والميزان المحكم في ذلك إنما هو بصيرة الإمام المتدين العادل

(1) الرحيق المختوم، لصفى الرحمن المباركفورى، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، الطبعة 19، 1428هـ 2007م.

وسياسة الحاكم المتبحر في أحكام الدين مع إخلاص في الدين وتجرد في القصد، إلى جانب اعتماد دائم على مشاورة المسلمين والاستفادة من خبراتهم وآرائهم المختلفة.

فإذا رأى الحاكم أنّ من الخير للمسلمين أن لا يجابهوا أعداءهم بالحرب والقوة، وتثبّت من صلاحية رأيه بالتشاور والمذاكرة في ذلك، فله أن يجنح إلى سلم معهم لا يصادم نصّاً من النصوص الشرعية الثابتة، ريثما يأتي الوقت المناسب والملائم للقتال والجهاد. وله أن يحمل رعيته على القتال والدفع إذا ما رأى المصلحة والسياسة الشرعية السليمة في ذلك الجانب.

وهذا ما اتفق عليه عامة الفقهاء، ودلّت عليه مشاهد كثيرة من سيرته صلّى الله عليه وسلم اللهم إلا إذا داهم العدو المسلمين في عقر دارهم وبلادهم، فإن عليهم دفعه بالقوة مهما كانت الوسيلة والملابسات، ويعمّ الواجب في ذلك المسلمين والمسلمات كافة بشرط الحاجة وتوفر مقومات التكليف.

ثم إن الصحيح الذي اتفق عليه عامة الفقهاء أن هذه الشورى مشروعة ولكنها ليست بملزمة، أي أن على الحاكم المسلم أن يستنير بها في بحثه ورأيه، ولكن ليس عليه أن يأخذ بآراء الأكثرية مثلا لو خالفوه في رأيه.. ويقول القرطبي في هذا: المستشير ينظر في اختلاف الآراء، وينظر أقربها إلى الكتاب والسّنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منها عزم عليه، وأنفذه متوكلا عليه.

ولا شك أن الباحث يسأل: لماذا لم يقع جواب أبي بكر وعمر والمقداد موقعا كافيا من نفس الرسول صلّى الله عليه وسلم، وظل ينظر في وجوه القوم، حتى إذا تكلم سعد بن معاذ، اطمأن وطابت نفسه عند ذاك؟

والجواب، أن النّبي عليه الصلاة والسلام إنما كان يريد أن يعرف رأي الأنصار أنفسهم في ذلك الأمر: ترى هل سيصدرون في آرائهم وأحكامهم عن المعاهدة التي تمت بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام من حيث إنها معاهدة خاصة تستوجب الالتزام بها، وإذاً فليس من حقه أن يجبرهم على القتال معه، والدفاع عنه إلا في داخل المدينة كما تنص على ذلك المعاهدة. أم سيصدرون عن مشاعرهم الإسلامية ومعاهدتهم الكبرى مع الله تعالى؟ إذاً فمن حق النّبي صلّى الله عليه وسلم أن يكون الأمين فيهم على هذه المعاهدة، ومن واجبهم أن يبذلوا حقوق هذه المعاهدة، ويقوموا بمسؤولياتها كاملة.

ولدى التأمل فيما أجاب به سعد بن معاذ، نعلم أن المبايعة التي ارتبط بها الأنصار مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة، لم تكن إلا مبايعة مع الله تعالى، ولم يكونوا يتصورون، وهم يلتزمون الدفاع عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم حينما يهاجر إليهم إلا دفاعاً عن دين الله تعالى وشريعته.

فليست القضية مسألة نصوص معينة اتفقوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم عليها، فهم لا يريدون أن يلتزموا بما وراءها، وإنما المسألة أنهم إنما وقّعوا بذلك تحت صك عظيم تضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

(1) سورة التوبة الآية: 111.

ولذلك كان جواب سعد رضي الله عنه: «لقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق.. فامض لما أردت فنحن معك». أي فنحن نسير معك وفق معاهدة أعظم من تلك التي اتفقنا عليها معاً، في بيعة العقبة[1].

المطلب الثانى: الحصول على أهم المعلومات عن جيش مكة:

ولكي يضع النبي صلى الله عليه وسلم جيشه أمام الأمر الواقع، ويقاتلوا وفقاً لما هو أمامهم من معطيات، فقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بعمليات استكشاف مع أبي بكر الصديق رضى الله عنه، فطافوا حول معسكر مكة، فوجدوا شيخاً من العرب، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش ومحمد وأصحابه، ولكن الشيخ قال: لا أخبركما حتى تخبرانى من أين انتما؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخبرتنا أخبرناك، قال: أو ذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه جيش مكة، ولما فرغ الشيخ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن من ماء، ثم انصرفا عنه، وبقى الشيخ يتفوه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟.

وفي مساء ذلك اليوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة من قادة المهاجرين: هم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهما القبض، وجاؤا بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة، ولما فرغ من صلاته خاطب الغلامين قائلاً: (أخبراني عن قريش)،

(1) انظر فقه السيرة للبوطى، 1/159-161.

قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، في رجال سمياهم، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[1].

قلت: هذا الفعل منه صلى الله عليه وسلم فيه إرشاد لنا إلى أهمية الأخذ بالأسباب، بغض النظر عن مآلات نهاية الأمر خيراً كانت أم شراً، ثم بعد ذلك نتوكل على الله، لذلك نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ كل الأسباب التي يمكن أن تقود إلى النجاح، من إعداد العدة، الجيش، واستعراضه، واختيار قادته، ثم بعد ذلك بدأ يدعو الله أن ينصره، ولم يكن يوماً يتكئ على أريكته، ثم يقول: الله ناصرى، مع أن الله بشره بالنصر، بل كان يغضب إذا طلب منه أن يدعو الله أن ينصره من غير الأخذ بالأسباب، فقد روى عَنْ خَبَّابٍ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا اللهَ، أَوَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ فَقَالَ: "قَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ، فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظْمِهِ مِنْ

(1) السيرة النبوية لابن هشام، 162/3، وتاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1407هـ، 21/2ـ 22 بتصرف.

لَحْمٍ وَعَصَبٍ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ[1]، كما أن ثمة أمراً آخر يرشدنا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملته للغلامين الأسيرين، فقد نهى عن ضربهما، وسألهما بحكمة عن أخبار جيش العدو، وهذا فيه ما فيه من معاملة الأسرى الطيبة، والرفق بهم. ولا يخفى علينا أن هذه المعاملة قادة كثيراً منهم إلى الدخول في الإسلام.

قال الدكتور البوطى: يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبيّنوا ما هم عليه من قوة في العدة والعدد. ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، بشرط أن لا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الإطلاع على حال العدو، وربما استلزمت الوسيلة تكتماً أو نوعاً من المخادعة أو التحايل. وكل ذلك مشروع وحسن من حيث إنه وساطة لا بد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم[2].

المطلب الثالث: النزول في أهم المراكز العسكرية وتعبئة الجيش:

بعد أن حصل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهم المعلومات عن جيش المشركين، تحرك بالجيش ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عشاءً أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري، وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلك الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة، قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل،

(1) أخرجه أحمد، 552/34 تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وقال صحيح على شرط الصحيحين.
(2) انظر فقه السيرة للبوطى، 161/1.

فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، ونغور ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أشرت بالرأي، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض، وغوروا ما عداها من القُلُب[1].

ثم اقترح سعد بن معاذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى له عريشاً يكون فيه، فقال: يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ثم نلقى عدونا، فإن أظهرنا الله على عدونا فنعمت، وإلا لحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك قوم ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً، ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له بخير. وبنى المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً يقع فى الشمال الشرقى لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة، كما تم اختيار فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ، يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

ثم عبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيش، وبث فيهم روح القتال، إذ مشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده، ويقول: "هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله"[3]، وبات المسلمون ليلة هادئة، غمرت الثقة قلوبهم، ثم أنزل الله عليهم قرآناً يتلى، فيه ما فيه من التأييد

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام، 167/3، والبداية والنهاية، 267/3، مرجع سابق.

(2) انظر عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لمحمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1406هـ -1986م.

(3) أخرجه مسلم، 51 كتاب الجنة، 17 باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، 2202/4 حديث رقم 2873.

لهم، وتثبيت الأقدام، وإذهاب رجز الشيطان، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[1]،[2].

قال الدكتور محمد سعيد البوطى: ويدلنا الحديث الذي جرى بين رسول الله صلّى الله عليه وسلم والحباب بن المنذر في شأن المكان الذي نزل فيه (وهو حديث صحيح الإسناد كما رأيت) أن تصرفات النّبي صلّى الله عليه وسلم ليست كلها من نوع التشريع، بل هو في كثير من الأحيان يتصرف من حيث إنه بشر من الناس، يفكر ويدبر كما يفكر غيره، ولا ريب أننا لسنا ملزمين باتباعه في مثل هذه التصرفات، فمن ذلك نزوله عليه الصلاة والسلام في المكان الذي اختاره في هذه الغزوة. فقد وجدنا كيف أن الحباب أشار بالتحول عنه إلى غيره ووافقه عليه الصلاة والسلام في ذلك، وذلك بعد أن استوثق الحباب رضي الله عنه أن اختيار النّبي صلّى الله عليه وسلم لذلك المكان ليس بوحي من عند الله.

ومن ذلك كثير من تصرفاته التي تدخل تحت السياسة الشرعية والتي يتصرف فيها النّبي صلّى الله عليه وسلم من حيث إنه إمام ورئيس دولة لا من حيث إنه رسول يبلغ عن الله تعالى، مثل كثير من عطاءاته وتدابيره العسكرية. وللفقهاء تفصيل واسع في هذا الأمر، ولا مجال لعرضه في هذا المقام.

*** (أهمية التضرع لله وشدة الاستعانة به):** لقد رأينا أن النّبي صلّى الله عليه وسلم كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم، حتى إنه كان يشير إلى أماكن متفرقة في الأرض ويقول: «ذا مصرع فلان»، ولقد وقع الأمر كما أخبر عليه

(1) سورة الأنفال الآية: 11.

(2) انظر الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص 195-196.

الصلاة والسلام، فما تزحزح أحد في مقتله عن موضع يده كما ورد في الحديث الصحيح.

ومع ذلك فقد رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له، يجأر إلى الله تعالى داعياً ومتضرعاً، باسطاً كفيه إلى السماء يناشد الله عزّ وجلّ أن يؤتيه نصره الذي وعد حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر، والتزمه قائلاً: «كفى يا رسول الله، إن الله منجز لك ما وعد». فلماذا كل هذه الضراعة ما دام أنه مطمئن إلى درجة أنه قال: «لكأني أنظر إلى مصارع القوم»، وأنه حدّد مصارع بعضهم على الأرض؟

والجواب؛ أن اطمئنان النّبي صلّى الله عليه وسلم وإيمانه بالنصر، إنما كان تصديقا منه للوعد الذي وعد الله به رسوله، ولا شك أن الله لا يخلف الميعاد، وربما أوحي إليه بخبر النصر في تلك الموقعة.

أما الاستغراق في التضرع، والدعاء، وبسط الكف إلى السماء، فتلك هي وظيفة العبودية التي خلق من أجلها الإنسان، وذلك هو ثمن النصر في كل حال.

فما النصر- مهما توافرت الوسائل والأسباب- إلا من عند الله وبتوفيقه، والله عزّ وجلّ لا يريد منّا إلا أن نكون عبيدا له بالطبع والاختيار، وما تقرّب متقرّب إلى الله بصفة أعظم من صفة العبودية، وما استأهل إنسان بوساطة من الوسائط استجابة دعاء من الله تعالى، كما استأهل ذلك بوساطة ذلّ العبودية يتزيّى ويتبرقع به بين يدي الله تعالى.

وما أنواع المصائب والمحن المختلفة التي تهدد الإنسان في هذه الحياة أو تنزل به، إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته، وتصرف آماله وفكره إلى عظمة الله سبحانه وتعالى، وباهر قدرته، كي يفرّ إليه سبحانه وتعالى، ويبسط

أمامه ضعفه وعبوديته، ويستجير به من كل فتنة وبلاء، وإذا استيقظ الإنسان في حياته لهذه الحقيقة، وانصبغ سلوكه بها، فقد وصل إلى الحدّ الذي أمر الله عباده جميعا أن يقفوا عنده وينتهوا إليه، فهذه العبودية التي اتخذت مظهرها الرائع في طول دعاء النّبي صلّى الله عليه وسلم وشدة ضراعته ومناشدته لربّه أن يؤتيه النصر، هي الثمن الذي استحق به ذلك التأييد الإلهي العظيم في تلك المعركة. وقد نصّت على ذلك الآية الكريمة، إذ تقول:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1]، ويقيناً منه صلّى الله عليه وسلم بهذه العبودية لله عزّ وجلّ، كان واثقاً من النصر، مطمئنا إلى أن العاقبة للمسلمين. ثم قابل مظهر العبودية التي تجلت في موقفه صلّى الله عليه وسلم ونتائج ذلك، مع مظهر ذلك الطغيان والتّجبر الذي تجلى في موقف أبي جهل حينما قال: «لن نرجع عن بدر أبدا حتى ننحر الجزر، ونطعم الطعام ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا»، وتأمل في نتائج ذلك التجبر والجبروت!..

لقد كانت نتيجة العبودية والخضوع لله تعالى، عزة قعساء، ومجداً شامخاً خضع لهما جبين الدنيا بأسرها، ولقد كانت نتيجة الطغيان والجبروت الزائفين قبراً من الضيعة والهوان أقيم لأربابهما حيث كانوا سيتساقون فيه الخمر وتعزف عليهم القيان. وتلك هي سنة الله في الكون كلما تلاقت عبودية لله خالصة مع جبروت وطغيان زائفين[2].

المطلب الرابع: تسوية الصفوف والتضرع إلى الله بالنصر:

(1) سورة الأنفال الآية: 9.

(2) انظر فقه السيرة للبوطي 161/1- 163.

بعد أن حصل رسول الله صلى الله عليه وسلم على معلومات عن الجيش المكي، وعزمه على اللقاء، وقف يسوى صفوف المسلمين، ويمر عليها ويعدلها بقضيب فى يده، فمر بسواد بن غزية حليف بنى النجار وهو خارج من الصف، فضربه بالقضيب فى بطنه، وقال: استقم ياسواد، فقال: أوجعتني يارسول، وقد بعثت بالحق والعدل، فأقدنى من نفسك، فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام عن بطنه، وقال: استقد يا سواد؟ فاعتنقه سواد، وقبلّ بطنه، فقال عليه الصلاة والسلام: ماحملك على ذلك؟ فقال: يارسول الله قد حضر ماترى، فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدى جلدك، فدعا له بخير.

ثم بدأ عليه السلام يوصى الجيش فقال: لاتحملوا حتى آمركم، وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل، ولاتسلوا السيوف حتى يغشوكم، ثم حضهم على الصبر والثبات، ثم رجع الى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشحاً سيفه، وكان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام ذاك الوقت كما جاء فى صحيح البخاري (اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد، فقال أبو بكر: حسبك فإن الله سينجز لك وعده، فخرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر)[1].

ثم بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على القتال، فقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبرإلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام اخو بنى سلمة، وفي يده

(1) أخرجه البخاري، 60 كتاب الجهاد والسير، 88 باب ما قيل فى درع النبي صلى الله عليه وسلم، 1067/3، حديث رقم 2758، وانظر نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، 101/1.

تمرات يأكلهن "بخ بخ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء"، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل[1].

قلت: إن العبرة التى نعتبر بها في مسألة تسوية الصفوف، هى أن القائد الناجح، هو الذي يقف مع جنوده بنفسه، ويشرف على جهازهم، وعدتهم وعتادهم، لأن ذلك يشحذ هممهم، ويقوى معنوياتهم، ويجعلهم أكثر استعداداً للمواجهة، إذ إن القائد هو رب الأمر، فإنك إن أوكلت إلى أحد العمال عملاً وبدأت تراقبه لاشك أنه سيتقنه، بخلاف لو أنك تركته وحده. وليس من صفات القائد الناجح أن يدير المعركة من قصره، او من أريكته التي يتكئ عليها.

وأما عمير بن الحمام فإن أمره لعجب، وإنه من روائع الإيمان، فهو يعكس لنا رغبة هؤلاء الصحابة في الجنة، وإنهم في سبيلها يهون أمامهم كل شئ حتى النفس، بل لايستطيعون أن يصبروا على شئ يحول بينهم وبينها، وإن كان مقدار زمن أكل تمرة، فياله من إيمان يفوق في ثباته الجبال. ولاشك أنهم بهذا الإيمان القوى كان لهم ما أرادوا من الفوز بالجنة والنجاة من النار. وقد تجسد هذا المعنى أمامهم بالأدلة القاطعة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2]، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، جسد هذا المعنى في أحاديث كثيرة، فكانت قلوبهم (رضي الله عنهم) مع الله، وأعينهم على الجنة، وليس لهم نصيب من الدنيا إلا مايسد رمق العيش، ونحن في عالم اليوم إن أردنا أن نسير على نهجهم، ونفوز بما فازوا به، فرحمتة الله وسعت كل شئ،،

(1) انظر عيون الاثر، 336/1-337، مرجع سابق.

(2) سورة آل عمران الآيات: 169-170.

قال تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، فما علينا إلا التوجه السليم إلى الله، وعبادته على حق، والخوف من عذابه، ورجاء رحمته، وما ذلك على الله بعزيز.

المطلب الخامس: اختيار أقاربه للمبارزة في أول المعركة:

فلما تراءى الجيشان برز عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار ستة، فقال عتبة: لانريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بنى عمنا من بنى عبد المطلب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ياعلى قم، ياحمزة قم، ياعبيدة بن الحارث قم، فقتل الله عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، وجرح عبيدة بن الحارث[2].

قلت: الناظر إلى هذا الاختيار منه صلى الله عليه وسلم يجد فيه من الحكم العظيمة والنظرة الثاقبة ما لم يخطر على بال أحد. فبعد أن رفض المشركون مبارزة النفر من الأنصار الذين خرجوا إليهم، وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج إليهم أكفاؤهم من بنى عمهم، فالذي ينظر إلى هذه المسألة بنظرة اليوم، يجد أن القائد لاشك تتجه أنظاره إلى الغرباء منه، ولايختار أقرباءه بأى حال، ولكن حكمة رسولنا الكريم اقتضت أن يختار أقرب الأقربين إليه، فاختار علياً وكان ابن عمه، واختار حمزة بن عبد المطلب وكان عمه، ثم اختار عبيدة بن الحارث وكان عمه أيضاً، إذ إن مكانة رسول

(1) سورة الأعراف الآية: 156.

(2) انظر تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ، 22/2.

الله صلى الله عليه وسلم اقتضت أن يتعامل مع جميع الجيش وكأنهم أبناؤه، كيف لا وهو الذي جاء ليمحو ما علق بالأمة من تعصب قبلي وعنصري، ويرسخ في النفوس رباط العقيدة السمحة. قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[1]، هذا التعامل الحكيم منه صلى الله عليه وسلم جعل العصبيات القبلية والعنصرية تذوب في بوتقة الإسلام، وجعل النفوس تتآخى في ضوء العقيدة الإسلامية، كما أمر رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في الحديث (عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[2] ، الأمر الذي جعل عمر بن الخطاب يقتل خاله في غزوة بدر، ومصعب بن عمير يقول لأحد الأنصار بعدما رآه يأسر أخاه أبا عزيز بن عمير، شد يديك به فإن له أماً ذات مال تفديه، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: هذه وصايتك بي؟ فقال مصعب لأخيه: هذا الأنصارى أخي دونك. وغيرها من النماذج الكثيرة في هذا الباب. هذه القيادة الرشيدة نحن في أمس الحاجة إليها اليوم، فتجد القائد يبدأ بالغرباء ليزج بهم إلى أرض المعارك، الأمر الذس خلق شيئاً من الغبن الذي يصعب إزالته عن النفوس إلا بالرجوع إلى هدى خير العباد، فإن فعلنا ذلك لاشك في أننا سنكون صالحين كما صلح أولنا، وإلا سنكون كغثاءً غثاء السيل، وستتداعى علينا الأمم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، كما أخبر بذلك النبى صلى الله

(1) سورة الأحزاب الآية: 6.

(2) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين، ح2586 عن النعمان بن بشير.

عليه وسلم في الحديث: (عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا " قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: " أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ". قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: " حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)[1]، وما هذه الإساءات التى أخرجها اليهود والأمريكان في فلم براءة المسلمين، الذي أساؤا فيه للمسلمين ونبيهم، إلا لبعد المسلمين عن هدى نبيهم، وترك سنة الجهاد، والتمسك بحب الدنيا، وتقديمها على أمور الآخرة.

المبحث الثانى

قيادته صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد

بعد أن خسر المشركون غزوة بدر، وفقدوا عدداً كبيراً من أشرافهم وزعمائهم، كانت تجيش فيهم نزعة الثأر والانتقام، فقرروا شن حرب شاملة ضد المسلمين، وأخذوا في الاستعداد لخوض هذه المعركة، وأول مافعلوه في هذا الصدد أنهم أقنعوا أصحاب العير التى كانت سبباً لغزوة بدر ونجا بها أبو سفيان، أقنعوهم بأن ينفقوا كل ما في العير لحرب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فوافقوا على ذلك، وأنزل الله في ذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[2]،[3].

(1) أخرجه أحمد، 82/37.

(2) سورة الأنفال الآية: 36.

(3) انظر السيرة النبوية لابن هشام 60/2 والروض ألأُنف 239/3، وسبل الهدى والرشاد 182/4.

ثم إنهم أغروا الشعراء بالقيام بتحريض القبائل ضد المسلمين، ولما استدارت السنة، أى في شوال من السنة الثالثة، كانت مكة قد استكملت عدتها، وأوكلت أمر القيادة العامة للجيش لأبي سفيان بن حرب، وتحركوا نحو المدينة الى أن عسكروا قريباً من جبل أُحد، وكان جيش المدينة بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج لملاقاة المشركين، وكان عددهم سبعمائة مقاتل، بعد انسحاب المنافق ابن أُبي بثلث الجيش، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش الإسلامى إلى أن نزل الشعب من جبل أُحد في عدوة الوادي، فعسكر هناك مستقبلاً المدينة، جاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أُحد، فدارت المعركة حول أحد، وقد أظهر المسلمون براعةً في فنون القتال، يسرت لهم الخروج من هذه الغزوة بأقل الخسائر[1].

المطلب الأول: عقد مجلس استشاري لأخذ خطة الدفاع:

بعد أن نقلت الأخبار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر تحرك جيش المشركين، ونزوله قرب أحد، عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً استشارياً عسكرياً أعلى تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف، ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيه إلى صحابته بألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشر مقام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، ووافق على هذا الرأى عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم به أحد، ولكن الله فضحه هو وأصحابه أمام المسلمين أول مرة.

(1) انظر الرحيق المختوم 225–230 بتصرف.

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابه ممن فاته الخروج يوم بدر، ومن غيرهم فأشاروا على النبى صلى الله عليه وسلم بالخروج، وألحوا عليه في ذلك حتى قال قائلهم: يارسول الله كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير، اخرج الى أعدائنا، لا يرون أنَا جبنا عنهم، وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال للنبى صلى الله عليه وسلم: والذي أنزل عليك الكتاب لأطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة.

وتنازل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رأيه مراعاة لهؤلاء المتحمسين، واستقر الرأي على الخروج من المدينة، واللقاء في الميدان السافر(1).

قلت: هذه المشورة التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكن أن نأخذ منها العبر والدروس التالية.

[1] إن الشورى كانت ديدن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره كله، وخاصة عندما يريد أن يغزو قوماً، وكان صلى الله عليه وسلم يميل إلى الرأي الذي يراه يحقق مصالح المسلمين، وإن كان على خلافه، مالم يكن وحياً، وقد تقدم الحديث عن هذه المسألة بتفصيل في هذا البحث.

[2] إن الشباب هم عماد الأمور في السلم والحرب، ففي السلم هم سواعد تبني، وعقول تفكر، وتخترع، وفي الحرب هم الركيزة التى تدور عليها رحى الحرب، وهم الذين يعتد برأيهم، لأن المعارك تدور رحاها عليهم، لذلك لما أشار شباب الصحابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج لمناجزة الكفار خارج أسوار المدينة في غزوة أحد، قبل رسول الله صلى

(1) انظر السيرة الحلبية 14/2، وزاد المعاد 172/3.

الله عليه وسلم برأيهم، ودارت معركة أحد خارج أسوار المدينة كما أشار شباب الصحابة، وهذا هو الدور المنوط بالشباب في كل زمان ومكان، ولكن الناظر إلى شباب اليوم يجدهم تركوا الاشتغال بالأمور الجسام، ورضوا بأن يكونوا مثل بغاث الطير، فأشتغلوا باللهو واللعب أكثر من اشتغالهم بالفرائض التي فرضت عليهم، وساهموا في إضعاف المسلمين بدلاً من أن يساهموا في قوتهم، وساهموا في تفكك المجتمعات بدلاً من المساهمة في رتق نسيجها، أسأل الله أن يعودوا إلى رشدهم، ويحملوا رايات البناء والتعمير، ويقودوا المسلمين إلى آفاق المجد والعزة والكرامة.

[3] إن المنافقين لم يكونوا يشيرون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر مالم يتحققوا من ضمان عملهم السلبي فيه، لذلك لما أشار المنافق عبد الله ابن أبي سلول على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يكون القتال داخل المدينة، ليس ذلك لإن هذا الرأي هو الصواب من الوجهة العسكرية، وإنما قال ذلك حتى يتمكن من البعد عن القتال عندما تدور المعركة دون أن يعلم به أحد، وعلى النقيض تماماً فإن أفاضل المسلمين لم يشيروا على رسو الله صلى الله عليه وسلم بأمر إلا لأنهم رأوا فيه المصلحة للمسلمين عاجلاً أو آجلاً، فلما أشار الصحابة الكرام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج لمقابلة القوم خارج المدينة، كان ذلك طمعاً منهم في جنة عرضها السموات والأرض، كما وعد بذلك ربنا في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

المطلب الثانى: تقسيم الجيش إلى كتائب واستعراضه:

ثم صلى النبى صلى الله عليه وسلم بالناس الجمعة، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم بأن النصر لهم بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك، ثم صلى بالناس العصر، وقد احتشد الناس وحضر أهل العوالي، ثم دخل بيته، ومعه صاحباه أبو بكر وعمر، فعممه وألبساه، فتدجج بسلاحه، وظاهر بين درعين، وتقلد السيف وخرج على الناس، وقسم النبي صلى الله عليه وسلم الجيش إلى ثلاث كتائب:

[1] كتيبة المهاجرين: وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري.

[2] كتيبة الأوس من الأنصار: وأعطى لواءها أُسيد بن حضير.

[3] كتيبة الخزرج من الأنصار: وأعطى لواءها الحباب بن المنذر.

وكان الجيش متألفاً من ألف مقاتل فيهم مائة دارع، ولم يكن فيهم من الفرسان أحد، واستعمل على المدينة ابن أُم مكتوم، وآذن بالرحيل.

وعندما وصل الى مقام يقال له (الشيخان)، استعرض جيشه، فرد من استصغره ولم يره مطيقاً للقتال، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وأسيد بن حضير، وزيد بن ثابت، وعَرابة بن أوس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن حارثة الأنصاري، وسعد بن حَبة، وأجاز رافع بن خُديج، وسَمُرة بن جُندب، على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً في رماية النبل فأجازه، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع،

(1) سورة آل عمران 169-170.

أنا أصرعه، فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا فصرع سمرة رافعاً فأجازه أيضاً.

قلت: إن من إقدامه صلى الله عليه وسلم على رد من لا يطيق القتال من الصبية، وإجازة بعضهم،،نأخذ الدروس والأحكام التالية:

[1] عدم استخدام الصبيان الذين لم يطيقوا القتال لصغر سنهم، سواء أتوا راغبين في القتال بإرادتهم أم جيئ بهم كارهين، وهذا مما وقع فيه كثيراً ممن يحملون السلاح ضد الدولة، فإنهم يجندون الأطفال للقتال كرهاً، بل يقومون باختطافهم من أهلهم ويربونهم على العنف والحقد على المجتمعات، فيكبروا وقد ضاعت قيمهم، وطمست عقيدتهم، فيصبحوا لقمة سائقة لكل أعداء الإسلام والمسلمين، وهؤلاء الذين يفعلون هذا بالقُصَر يدعون أنهم مسلمون، ولو كانوا كذلك لزجرهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]، ولنهاهم قوله صلى الله عليه وسلم (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَيَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا»[2].

[2] إن التربية على الإيمان القوى كان ديدن الصحابة مع أبنائهم، فكان أن أنجنبوا أبناءً مثل الكبار عزيمة، وهذه التربية هي التي غرس بذرتها

(1) سورة المائدة الآية: 33.

(2) أخرجه الحاكم، 131/1ح209 عن عبد الله بن عمر وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

رسولنا صلى الله عليه وسلم. فقد روي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[1]، وقد طبق الصحابة رضي الله عنهم هذه التربية بحذافيرها على أبنائهم، فكان الغرس طيباً والثمر طيباً، فكان الإيمان يضاهي الجبال ثباتاً، ويتجلى هذا الإيمان القوي في أن الصبي سمرة بن جندب الذي لم يبلغ الحلم يحتج على عدم إجازته للقتال في غزوة أحد، مع إجازة صاحبه رافع بن خديج لأنه كان ماهراً في الرماية، فقال سمرة بن جندب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أصرع رافعاً، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتصارعا، فتصارعا فصرع سمرة رافعاً، فأجازهما رسول الله صلى الله عليه وسلم الاثنين معاً، فأين أبناؤنا اليوم من هذا الإيمان القوي الذي ذابت فيه كل مغريات الدنيا، وبقيت مغريات الآخرة فقط. لاشك أن أبناءنا اليوم مشغولون بالدنيا أكثر من الآخرة، مشغولون باللهو واللعب، وأصبح كل همهم أن ينعموا بمشاهدة الأفلام الإباحية، ويسهروا ثلثى ليلهم في لعب الورق، نعم إنهم مقصرون، ولكن التقصير الأكبر من الآباء، فهل قام الآباء بكل ما هو مطلوب منهم شرعاً تجاه أبناؤهم، كما أمر رسولنا صلى الله عليه وسلم في الحديث عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(1) أخرجه الترمذي، 667/4ح2516 عن ابن عباس وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح.

اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[1]، فهل علموهم الدين، هل غرسوا فيهم حب الآخرة والعمل لها، هل علموهم توقير الكبير ورحمة الصغير، هل علموهم الفرائض، هل علموهم النواهي لكي يجتنبوها؟ لاشك إن الإجابة في كل ذلك لا. ويبدو أن الآباء شغلهم التفكير في لقمة العيش أكثر من شغلهم بالآخرة.

[3] إن التربية الناجحة هي التي تتناول جميع ضروب الحياة، ولا سيما التربية على إجادة فنون القتال، لأن أعداء الإسلام يتربصون بالمسلمين الدوائر، فلربما هجموا على بلاد المسلمين على حين غفلة منهم، فإن لم يوجد من المسلمين من يجيد استعمال آلات الحرب فالخسارة لا محالة واقعة، وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حينما وجد نفراً من الصحابة يتسابقون بالرمى، فاستحسن ذلك منهم، وحثهم على فعله. فقد روى البخاري عن سَلَمَةَ بْنَ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ[2]، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، ارْمُوا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلاَنٍ» قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لَكُمْ لاَ تَرْمُونَ؟»، قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ»[3]، لذلك نجد أن هؤلاء

(1) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة ، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، ح484 عن عمرو بن شعيب به.

(2) ينتضلون: أَيْ يَرْتَمون بِالسِّهَامِ. يُقَالُ: انْتَضَلَ القومُ وتَنَاضَلُوا: أَيْ رَمَوْا للسَّبْق. انظر النهاية في غريب الحديث 72/5.

(3) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمى، 38/4 ح2899 عن سلمة بن الأكوع به.

الصبية الذين ردهم رسول الله والذين أجازهم، كانوا جميعاً على دراية تامة بفن القتال والحرب، وما ذلك إلا لتحمل أهلهم المسؤولية التامة في تربيتهم التربية الكاملة الشاملة لجميع فنون الحياة.

المطلب الثالث: اختيار الطريق الآمن لسير الجند:

ثم تحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش نحو أحد، فقال مخاطباً الصحابة: من يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم، فقال أبو خيثمة أخوبنى حارثة بن الحارث: أنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنفذ بالجيش في حرة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك في مال لمربع بن قيظى، وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر، فلما سمع حس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، قام يحثو في وجوههم التراب ويقول: إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي، وروي أنه أخذ حفنة من التراب في يده ثم قال: والله لو أني أعلم لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر[1].

قلت: هذه المعاملة منه صلى الله عليه وسلم لهذا المنافق ترشدنا إلى أمر مهم، ألا وهو معاملة الأسرى بالحسنى، فقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجند من التعرض لهذا المنافق مع أنه أساء للمسلمين ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، عملاً بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2]، فكيف يكون حال هذا الرجل إذا اعترض طريق جيش في يومنا هذا، إذاً لأوجعوه ضرباً، ولربما قتلوه، فهذا التعامل النبوى يفتقده جندنا اليوم،

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام 64/2، وزاد المعاد 172/3.

(2) سورة الأعراف الآية: 199.

فتجدهم يذلون الناس من غير مبرر، ويسيئون إليهم ويضربونهم أشد ما يكون الضرب. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التكبر الذي يقود إلى احتقار الناس، فقال: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس)[1] ، ومن المؤكد أن أسلوب الإساءة للناس يبعث الغبن في النفوس، وقد يؤدي إلى عواقب وخيمة، وليس ببعيد عنا الثورة التونسية التي أودت بالحكومة القائمة، وكان سببها هو احتقار عامل عادي فضربه الجنود وركلوه بالأرجل، فقام بحرق نفسه، فثار الشعب، فكانت بداية ثورات الربيع العربي التي قضت على أغلب الحكومات المتجبرة.

المطلب الرابع: رسم أنجع خطة للدفاع:

بعد أن نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيشه الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي، عبأ جيشه وهيأهم صفوفاً للقتال، فاختار منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلاً، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي البدري، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الشمالية من وادي قناة – وعُرف فيما بعد بجبل الرماة – جنوب شرق معسكر المسلمين على بعد مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الإسلامي، والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة، فقد قال لقائدهم: انضح الخيل عنا بالنبل لايأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فأثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك[2].

(1) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، 93/1 ح147 عن ابن مسعود رضى الله عنه.

(2) انظر السيرة النبوية لإبن هشام، 66/2،65.

وقال للرماة: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا[1].

وفي رواية البخاري أنه قال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم[2].

أما بقية الجيش: فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود، وأوكل إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، وقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جداً، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبي صلى الله عليه وسلم العسكرية، أنه لا يمكن لقائد مهما كانت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذه، فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فإنه حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره – حين يحتدم القتال – بسد الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعاً مرتفعاً يحتمى به – إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين – ولايلتجئ إلى الفرار حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم – ويلحق من ذلك خسائر فادحة بأعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جداً أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم

(1) أخرجه أحمد، 186/6، والطبرانى في الكبير 173/9.

(2) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، 426/1ح3039.

الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوَض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين.

وقد تمت تعبئة الجيش النبوي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة 3هـ.

ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم وظاهر بين درعين، وحرَض الصحابة على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، حتى إنه جرد سيفاً باتراً فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه، فقام إليه رجال ليأخذوه، منهم علي بن أبى طالب، والزبير بن العوام وعمر بن الخطاب، حتى قام إليه أبودجانة سماك بن خَرَشة فقال: وما حقه يارسول الله؟ فقال أن تضرب به وجه العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه[1].

قلت: إن في ما أقدم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعبئة للجيش دروساً وأحكاماً نجملها فيما يلى:

[1] إن القائد الناجح يستوعب كل الأسباب والخطط المطلوبة لإدارة المعركة بنجاح، وتهيئة أجواء النصر لجيشه، وهذا يدخل في إعداد العدة الذي أمر الله به في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[2]، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يهتم بهذا الأمر اهتماماً كبيراً، ولا يترك

(1) أخرجه البزار في مسنده، 53/2 وقال الهيثمى في المجمع، 90/6 رواه البزار ورجاله ثقات – وانظر الرحيق المختوم ص 230–231 بتصرف.

(2) سورة الأنفال الآية: 60.

ثغرة تضر بالمسلمين إلا سدها، ثم بعد ذلك يتوكل على الله ويدعوه أن ينصره، فلو أن القائد أغفل بعض التدابير الحربية ولم يتمها، فإن ذلك يؤدي إلى إضعاف روح الجند الحربية، فإذا دارت المعركة فلربما قاتلوا أجساداً بلا أرواح، مما يسهل مهمة أعدائهم في استئصال شأفتهم.

[2] طاعة القائد واجبة على جميع الجند فيما أمر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1]، هذه الطاعة هي التى تمهد طريق النصر للجند، وتؤدي إلى التسامح والتآخى بينهم، وأما مخالفة القائد فلاشك أنها تقود إلى الخسائر الفادحة في الأرواح، وفي كل شئ، وقد نبه النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك كما في قوله تعالى: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، - فَسَمِعْتُ سُفْيَانَ يَقُولُ - " مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ) [2]، ولما خالف الرماة يوم أحد أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتهادهم كانت الخسارة الفادحة والكبيرة التي أفقدت المسلمين نفراً من أصفياء الأمة وصلحاء الناس.

قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى: وأما الظاهرة التي تلوح للمتأمل من خلال توصياته الدقيقة هذه لأصحابه عامة، وللرماة خاصة فهي ظاهرة ذات علاقة وثيقة بما قد تم بعد ذلك من خروج بعض أولئك الرماة على أوامره صلّى الله عليه وسلم. فكأن النبي صلّى الله عليه وسلم قد استشف

(1) سورة النساء الآية: 59.

(2) أحمد 286/12 بتحقيق شعيب وعادل، وقال إسناده صحيح على شرط الصحيحين.

بفراسة النبوة أو بوحي من الله تعالى هذا الذي قد حدث فيما بعد، فصار يؤكد التوصيات والأوامر، وكأنه في ذلك يجري مع أصحابه مناورة حية مع عدوّ لهم هو النفس وأهواؤها وما تنطوي عليه من طمع في المال والغنائم. والمناورة مهما كانت نتيجتها، تفيد فائدة عظيمة.. وربما كانت النتيجة السلبية إدعى للاستفادة من النتيجة الإيجابية[1].

قلت: فيما يتعلق بالسيف الذي جرده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه، فقام إليه رجال من المهاجرين فلم يعطه لهم، حتى جاءة أبو دجانة الأنصارى فقال: وما حقه يا رسول الله ؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينثني، مع أن الذين سبقوا أبا دجانة صحابة أفاضل، وعلى صلة رحمية برسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ إن علي ابن عمه، والزبير بن العوام ابن عمته صفية، وعمر بن الخطاب صهره، فالجواب هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئن من ثبات هؤلاء وبذلهم الغالي والنفيس إذا دارت المعركة، فهؤلاء لا يحتاجون إلى مزيد تحريض على القتال، فإن الأمر عندهم سيان، سواء أخذوا سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يأخذوه، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يعرف مدى استعداد غيرهم إذا دارت الحرب وحمي الوطيس، وهل كل الجند على درجة من الاستعداد كاستعداد هؤلاء الذين يثق في ثباتهم وعزيمتهم، لذلك لما قام سماك بن خرشة (أبودجانة الأنصاري) أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف، واطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى الروح القتالية العالية التى يتمتع بها سائر الجيش، ومثل ذلك إنك إن أردت أن تعلم رأي قوم في أمر من الأمور، وكان فيهم حلفاؤك وبطانتك التي تثق فيها، فإذا أتتك الموافقة من أحد

(1) انظر فقه السيرة للبوطى 179/1.

حلفائك ومن تثق فيهم، فلا شك أنك إن كنت عادلاً فسوف لا تعتمد على ذلك بل تطلب من غير حلفائك الإدلاء برأيهم حتى تقف على حقيقة الأمر، فإن نطق من لا تربطه بك مصلحة بموافقتك، فحينها تطمئن نفسك، وتسير على بركة الله، وهذا هو عين ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر.

المطلب الخامس: تدبيره بعد تطويق المشركين المسلمين:

وبينما كان الجيش الإسلامي على وشك تسجيل نصر جديد يعزز به نصره في بدر، ويقوى به شوكة المسلمين، فقد استطاع فرسان المسلمين إبادة حملة لواء المشركين عن آخرهم حتى سقط لواؤهم فلم يجترئ أحد على رفعه، وأخذ المشركون في الفرار، وتبددت قواهم، إذا بالرماة الذين أوكل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حراسة الجبل الذي يحمي ظهر المسلمين تركوا مواقعهم لما رأوا المسلمين بدأوا في جمع غنائم العدو، على الرغم من تذكير قائدهم عبد الله بن جبير بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الأغلبية الساحقة منهم ذهبت لتشارك في جمع الغنيمة، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة أو أقل من أصحابه.

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة، فكرّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة، ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فأباد ابن جبير ومن بقى معه، ثم إنقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف بها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فإنقلبوا على المسلمين وألحقوا بهم خسائر فادحة.

وخلص المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطمعوا في القضاء عليه، فجرحوا وجهه، وكسروا رباعيته اليمنى، وهشموا البيضة على رأسه، ورموه بالحجارة حتى وقع لشقة وسقط في حفرة من الحفر التى كان

أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين، وقتل جماعة من الصحابة ممن كانوا يدافعون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان على الرغم مما لحقه من الأذى يحثهم على الصبر والثبات ويبشرهم بالجنة، حتى اجتمع إليه رجال من أفاضل الصحابة، ممن لم يعلم عن تطويق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن ما لحقه من الأذى شيئاً، فبدأوا في الدفاع عنه، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقهقر بالمسلمين إلى أعلى جبل أحد، وقد نجح في ذلك على الرغم من محاولات المشركين اعتراض هذا التقهقر والتي باءت بالفشل مع ما أظهره المسلمون من فنون في القتال، وثبات على الإيمان لذلك يمكن القول إن هذه الغزوة لم تنته بفوز أو خسارة لأحد الفريقين، بل إن كلا الفريقين نال حظه من الفوز والخسارة. فأول الأمر فاز المسلمون وانتصروا، وفي آخره ألحق المشركون الخسائر الفادحة بالمسلمين، لكن لم يكن هناك أسر أو مطاردة كالعادة في الحروب التي تنتهي بنصر محقق[1].

قلت: إن ما ذهب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصرف حكيم بعد عملية تطويق الجيش الإسلامي، وثباته صلى الله عليه وسلم في أرض المعركة بعد ذلك، يدلنا إلى حكم مهمة، ودرس من دروس ساحات الوغى، وهو أن القائد الناجح لا يلجأ إلى الفرار عن ميدان المعركة مهما كانت النتيجة، لأن عواقب الفرار أكبر بكثير من عواقب الثبات مهما كبرت الخسائر، إذ إن الفرار يجعل الأعداء يستمرون في إدارة دفة الحرب لصالحهم، فيستمرون في جمع الغنائم، وقتل من ثبت من المسلمين، ومطاردة من فر منهم وأسرهم، وهذا إن حصل سيضعف مكانة المسلمين العسكرية والسياسية، ويذهب هيبتهم، كما أن الله حرم ذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا

(1) انظر زاد المعاد في هدى خير العباد، 172/3 و الرحيق المختوم 225–230 بتصرف.

تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]، لذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يلجأ إلى الفرار أبداً في كل غزواته التي غزاها، حتى لو رأى من جيشه نكوصاً وتراجعاً، فإنه يقوم ببعض التدابير والخطط التي يؤمن بها انسحاب الجيش من ساحة المعركة دون أن تلحقه خسائر، وهذا ما حدث فعلاً منه صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد، فحينما ترك الرماة أماكنهم، ودارت الدائرة على المسلمين ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ميدان المعركة، وتجمع حوله الصحابه وبدأوا يدافعون عنه صلى الله عليه وسلم دفاعاً مستميتاً، إلى أن باءت كل محاولات المشركين لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفشل، ثم نقهقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش إلى أعلى جبل أحد، وهكذا استطاع أن يكفي المسلمين شر خسائر فادحة، إذا تركهم يفرون، أو إذا تركهم دون خطة تؤمن لهم انسحابهم، وهذا أيضاً ما فعله القائد الناجح خالد بن الوليد في معركة مؤتة، حينما استشهد القادة الثلاثة قبله، واستلم قيادة الجيش، فقام بتدبير حيلة وخطة يؤمن بها إنسحاب الجيش دون أن تلحقه خسائر، وكان له ما أراد، حينما قام بتغيير في صفوف الجيش، فنقل ميمنة الجيش إلى الميسرة، والميسرة إلى الميمنة، وجعل الساقة في المقدمة، والمقدمة ساقة، فلما رأى الروم هذا التغيير ظنوا أن المسلمين أتاهم مدد، فأنسحب المسلمون دون أن يتعرض لهم الروم بسوء.

المبحث الثالث

قيادته صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب

المطلب الأول: خطته لمواجهة الأحزاب:

(1) سورة الأنفال الآيات: 15-16.

عاد الأمن والسلام إلى الجزيرة العربية بعد الحروب والبعوث التي استغرقت أكثر من سنة كاملة بدءاً من غزوة بدر، ومروراً بأحد، وغير ذلك من البعوث والسرايا، إلا أن اليهود الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم، لم يفيقوا من غيهم، ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر، فبعد نفيهم إلى خيبر شرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، فخرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، وقبائل غطفان وغيرهم من قبائل العرب، يحرضونهم على غزو الرسول الله عليه وسلم، ووعدوهم بالنصر لهم، فاستجاب لهم من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، جيش ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ، ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين، وربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت إستخبارات المدينة إلى قيادتها خبر هذا الزحف الخطير.

قلت: إن في هذه الغزوة دلالة قوية على عظم عداوة اليهود للإسلام والمسلمين، وإنهم كما قال الله فيهم ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1]، فبعد أن عاهدهم رسول

(1) سورة البقرة الآية: 120.

الله صلى الله عليه وسلم وأعطاهم الأمان على العيش بالمدينة آمنين، على أن لا يتعرضوا إلى المسلمين بسوء، ولكنهم نقضوا عهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً عهداً، فبنو قينقاع نقضوا عهدهم مع المسلمين فأجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدينة، وبنو النضير أيضاً نقضوا العهد فأجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدينة، وجاء دور بني قريظة من هذه الغدرة، فحاربهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمكنه الله منهم، فقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم، ومع ذلك لم يفق اليهود من غيهم، فهاهم يؤلبون القبائل لحرب المسلمين في غزوة الخندق، هذا الدور السيئ من اليهود تجاه الإسلام والمسلمين هو ما أعلنوه وقاموا به منذ بزوغ شمس الدعوة الأول، فيوم أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أعلن زعماء اليهود معاداته، ويظهر ذلك جلياً فيما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها. قال ابن إسحاق: حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي؛ حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فو الله ما التفت إلى واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي، حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟

قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[1]، وتصرفهم السلبي هذا مستمر إلى يومنا هذا، فهاهم يحتلون بيت المقدس، أول القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وعاثوا فيه فساداً، وطمسوا كثيراً من ملامحه، ومنعوا المسلمين من الصلاة فيه بشتى السبل، وإن كلفهم ذلك استخدام الأسلحة النارية، وهاهم يوجهون نيران أسلحتهم المتقدمة، وصواريخهم من على الطائرات لضرب المسلمين العزل في فلسطين، ويضيقون عليهم اقتصادياً، مما يدل على أن هؤلاء اليهود ملة واحدة وإن اختلفت الأزمان.

المطلب الثاني: حفر الخندق:

بعد أن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر تحرك جيش الأحزاب، سارع إلى عقد مجلس استشاري أعلى، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى، اتفقوا على قرار قدمه الصحابى الجليل سلمان الفارسي رضى الله عنه.

قال سلمان: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثهم ويساهم في عملهم هذا. ففي البخاري عن سهل بن سعد، قال: كنا مع رسول الله في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا[2]، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(1) انظر سيرة ابن هشام 518/1-519.

(2) الكتد بفتح التاء وكسرها مجتمع الكتفين وهو الكاهل. انظر النهاية في غريب الحديث 255/4.

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار[1].

وعن البراء بن عاذب قال: رايته صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى وأرى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولاتـصـدقنا ولاصلينا
فـأنـزلن سـكينـة علينا وثبـت الأقـدام إن لاقـينا
إن الألى قد بغوا علينـا وإن أرادوا فـتنة أبينا[2]

ولما كانت المدينة تحيط بها الجبال والحرات، وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أن زحف مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمته المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق في هذا الجانب.

وواصل المسلمون عملهم في حفره، فكانوا يحفرون طول النهار، ويرجعون إلى أهليهم في المساء، حتى تكامل حفر الخندق حسب الخطة المنشودة قبل أن يصل الجيش الوثني العرمرم إلى أسوار المدينة[3].

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار، وكان شعارهم (حم لا ينصرون)، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذرارى، فجعلوا في آطام[4]المدينة.

---

(1) أخرجه البخاري، 64كتاب المغازي، 29باب غزوة الخندق، 481/13ح4098.

(2) المرجع نفسه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، 489/13ح4106.

(3) انظر السيرة النبوية لابن هشام، 330/3-331 بتصرف.

(4) الأطم بالضم بناء مرتفع وجمعه آطام، وآطام المدينة أبنيتها المرتفعة كالحصون. انظر النهاية في غريب الحديث 130/1.

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين، واقتحام المدينة وجدوا الخندق بينهم وبينها، فلجأوا إلى فرض حصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة مكيدة لم تعرفها العرب، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً، وأخذ المشركون يدورون حول الخندق يتحسسون نقطة ضعيفة ينحدرون منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقاً يمكنهم من العبور(1).

قلت: إن في حفر الخندق دروساً وعبراً، منها: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يلتزم الشورى في أموره كلها سلماً أم حرباً، لذلك نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار الصحابة في خطة الدفاع عن المدينة، فأشار إليه سلمان الفارسي بحفر الخندق، وقد شارك النبى صلى الله عليه وسلم الصحابة في حفر الخندق بنفسه، فلم يجلس بعيداً وينظر ويوجه، بل باشر العمل بنفسه، فلما جاعوا جاع مثلهم، كما روى عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجُوعَ وَرَفَعْنَا عَنْ بُطُونِنَا عَنْ حَجَرٍ حَجَرٍ فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَجَرَيْنِ(2)، ويأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، حتى تكامل حفر الخندق، ورد الله المشركين بغيظهم لم ينالوا شيئا، هذا هو نبي هذه الأمة، وقائدها الفذ، الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم، استطاع بهذه الحكمة والتواضع أن يملك قلوب من معه، بل أن يملك قلوب سائر أمته، فهي حتى اليوم تغضب لإساءته، وتخرج في مسيرات هادرة تجوب كل أنحاء الدنيا طمعاً في نصرته.

(1) انظر الرحيق المختوم ص 271.

(2) الترمذى، أبواب الزهد، باب ماجاء في معيشة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، ح2371 عن أبي طلحة.

المطلب الثالث: موقفه بعد نقض بني قريظة العهد مع المسلمين:

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة، انطلق كبير مجرمي بني النضير، حيي بن أخطب إلى ديار بني النضير فأتى كعب بن أسد القرظي، سيد بني قريظة، وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصره إذا أصابته حرب، وحرضه على حرب المسلمين، ولكن كعباً رفض ذلك للعهد الذي بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يزل حيي يكلمه ويحرضه على قتال المسلمين حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه والمسلمين، ودخل مع المشركين في محاربة ضد المسلمين[1].

وانتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين، فبادر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تحقيقه، حتى يستجلي موقف قريظة فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية، وبعث لتحقيق الخبر السعدين، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما يبلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس، فلما دنوا منهم وجدوهم قد نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانصرفوا عنهم، فلما أقبلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لحنوا له وقالوا: عَضَل وقَارَة، أي أنهم على غدر كغدر عضل، وقارة بأصحاب الرجيع[2].

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام 2/221،220.

(2) انظر الرحيق المختوم، ص 274-275.

بعد أن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنقض العهد الذي بينه وبين بني قريظة، أخذ يخطط لمواجهة هذا الحال الراهن، ولكن لابد من إقدام حاسم يفضي إلى تخاذل الأحزاب، فاستشار السعدين، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، على مصالحة عيينة بن حصن، والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة حتى ينصرفا بقومهما ويتركوا المسلمين لإلحاق الهزيمة بقريش، فقال السعدان: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلاحاجة لنا فيه، لقد كنَا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا، والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوَب رأيهما وقال: إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

ثم إن الله عز وجل صنع أمراً من عنده، خزل به العدو، وهزم جموعهم، فهيأ الله رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يارسو الله إني أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت رجل واحد، فخذِل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة، فذهب إلى بني قريظة – وكان عشيراً لهم في الجاهلية – فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودى إياكم، وخاصَة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، قال: إن قريشاً ليست مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لاتستطيعون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة

انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمد فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يانعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن، قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلاتعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس من الهجرة، بعثوا إلى يهود: إنَا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع[1]والخف[2]، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم سبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حيث أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لانقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك، قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود إنَا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم، فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

وكان المسلمون يدعون الله تعالى: (اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا)، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم[3].

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين، وسرى بينهم التخاذل، أرسل الله عليهم جنداً من الريح فجعلت تقوض

(1) الكراع إسم لجميع الخيل، انظر النهاية، 297/4.

(2) الخف: الجمل المُسن، انظر النهاية 130/2.

(3) أخرجه البخاري، 64كتاب المغازي، 29باب غزوة الخندق، 498/13ح4115.

خيامهم، ولاتدع لهم قدراً إلا كفأتها، ولاطُنُباً[1] إلا قلعته، ولايقر لهم قرار، وأرسل جنداً من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحالة، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة.

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، وأقام المشركون محاصرين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين شهراً، يبدو بين الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال ونهايته في ذي القعدة، وعند ابن سعد انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة.

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مر، إلا إنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وظهر أن أي قوة من قوات العرب، لاتستطيع استئصال القوة الصغيرة التى تنمو في المدينة، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى عما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجلى الله الأحزاب: (الآن نغزوهم ولايغزونا، نحن نسير إليهم)[2].

---

(1) الطنب: الحبال تشد بها الخيمة، انظر النهاية 312/3.

(2) أخرجه البخاري، 64 كتاب الغزوات، 29 باب غزوة الخندق، 493/13ح4110، وانظر الرحيق الختوم ص 274-275.

قلت: إن في نقض بني قريظة عهدهم مع المسلمين ومواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بالتدابير التى كفت المسلمين شر ذلك الغدر لعبراً ودروساً وأحكاماً منها:

[1] إن اليهود أهل غدر ومكر ودس، فبعد أن أعطوا المسلمين العهود والمواثيق التي تؤمن لهم العيش في سلام مع المسلمين، فإذا بهم ينقضون عهودهم، ولم يستطيعوا الثبات عليها، وهذا هو حالهم الذي لم يستطيعوا الإقلاع عنه منذ القدم، وقد تحدثنا عن اليهود وغدرهم في تعليقنا عن سبب غزوة الخندق.

[2] إن على المسلم التحقق من صحة الأخبار التى تصله، ولا يبنى عليها أحكاماً إلا بعد أن يتحقق منها. فهذا رسول الأمة صلى الله عليه وسلم بعد أن وصله خبر نقض بني قريظة عهدهم مع المسلمين، كان أول ما فعله أن أرسل اثنين من أفاضل الصحابة للتثبت من صحة الخبر، فلما أكدا له صحة الخبر فعل تدابيره لمجابهة، وهذا ما تفقده الأمة في هذا الزمان، فتجد بعض الناس عندما يبلغه خبر خيراً أو شراً، يقوم بنشره بين الناس من غير تثبت، فلم يلبث أن يكتشف زيف الخبر، وتجد البعض يعادي أخاه لمجرد خبر طائش لم يتحقق منه، فكان ينبغي علينا جميعاً أن نتثبت عن جميع الأخبار التي تصلنا، ولانبني عليها أحكاماً حتى نتحقق من صحتها، وهذا ما أشار إليه المولى عز وجل في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

(1) سورة الحجرات الآية: 6.

[3] إن من تمام الحكمة الجهر بالخبر السار بين الناس، والإسرار بالخبر السيئ، وهذا الأمر مطلوب في حالتي السِلم والحرب، لأن الخبر السار يدعم الوحدة ويرفع الروح المعنوية فلا حاجة إلى الإسرار به، وأما الخبر السيئ فإن جُهر به فإنه يقلل من الروح المعنوية، ويفتح أبواباً من اللغط بين الناس، فيخوضوا فيه وفي أسبابه مما يقلل من تماسك الجماعة الواحدة، لذلك نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الرسولين الذين أرسلهما إلى بني قريظة ليتحققا من صحة الخبر بإفشائه بين الناس إن كان خيراً، وكتمانه إن كان شراً، وقد وقع المسلمون في عاقبة سيئة في غزوة بني المصطلق نتيجة فشو خبر سيئ بينهم، وذلك لما تشاحن غلام لعمر بن الخطاب، وغلام للأنصار، فأستنجد كل من الغلامين بقومه، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتوى الأمر، ثم لما بلغ هذا الأمر المنافق عبد الله بن أبى بن سلول قال: والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُخبر بما قاله هذا المنافق، فلما علم عبد الله بن أبى بن سلول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُخبر بما قاله جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكر ما قاله، وبدأ الناس يتحدثون في ذلك، ويخوضون فيه، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً أن يؤذن بالرحيل في زمن لم يكن يعتاد الرحيل فيه، ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا

أن وجدوا مس الأرض، فوقعوا نياماً. فعل ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث[1].

[4] إن من الدروس المستفادة من تدبير رسول الله صلى الله عليه وسلم نقض بني قريظة للعهد، أن القائد إذا وقع في أمر جلل عليه أن يخطط لمجابهته ويستشير أهل الرأي من خاصته، ويأخذ برأيهم، فقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم السعدين – سعد بن معاذ وسعد بن عبادة – على مصالحة عيينة بن حصن، والحارث بن عوف رئيسى غطفان، على ثلث ثمار المدينة حتى ينصرفا بقومهما ويتركوا المسلمين لإلحاق الهزيمة بقريش، ولكن السعدان رفضا ذلك، وقالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فصوّب رأيهما وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»[2]، وهذا يدخل في باب أن ما أبداه صلى الله عليه وسلم من الرأي يحتمل الأخذ والرد ما لم يكن وحياً، وقد سبق الحديث عن هذه المسألة في ثنايا هذا البحث.

[5] إن الكذب في الحرب مباح، بل هو مطلوب إذا كان يحقق المصالح العالية للمسلمين، لذلك نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنعيم بن مسعود: اذهب فخذل عنا، فذهب نعيم فخذل فكان أن تخاذل المشركون،

(1) انظر تفاصيل القصة في الرحيق المختوم، ص302.

(2) انظر الرحيق المختوم ص285.

ودبت الفرقة بينهم، وهذه إحدى الأحوال الثلاثة التي يجوز فيها الكذب كما بين رسولنا صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم حَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّ أُمَّهُ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ، اللَّاتِي بَايَعْنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْبَرَتْهُ، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا» قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا[1].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبرضائه تنال الجنات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وقائد الغر المحجلين، ذو الخلق العظيم، محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بحمد الله وتوفيقه، فرغت من هذا البحث، الذي اخترت له عنوان قيادة النبي صلى الله عليه وسلم الحكيمة في بعض الغزوات العظيمة، وأجزم بأنه لايشمل كل التصرفات الحكيمة في حيات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني وددت أن أحرك ساكناً، عسى أن يخوض فيه غيرى، ويبين مالم أُوفق في بيانه، ويمكن تلخيص هذا البحث في الآتي:

[1] إن الشورى كانت ديدن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أموره كلها، وكان أحرص ما يكون عليها عند إرادة الحرب.

(1) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، 2011/4 ح2605 عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

[2] إن عامة ممتلكات أعداء المسلمين تعد أموالاً مباحة ما داموا في حرب مع المسلمين، فالمسلمين الحق في الاستيلاء عليها، وماوقع في أيديهم منها يعد ملكاً لهم.

[3] إن الصحابة كانوا أشد حباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا في سبيل ذلك يخاطرون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم.

[4] إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قائداً عظيماً في حالتي السلم والحرب، فكان في السلم يؤاخي بين الناس ويفض نزاعاتهم، وغيرها مما يقتضيه الحال، كما أنه كان في الحرب، يعمل بالأسباب ثم يتوكل على الله حق التوكل، فيرسل العيون لتأتيه بأخبار الأعداء، ويحرض المؤمنين على القتال، ويسوى الصفوف، ويدعو الله أن ينصره، ويختار أفضل المواقع في ساحة الحرب، ولا يلجأ إلى الفرار، وإن كانت الدائرة على المسلمين.

[5] إن الكذب والكبر من المحظورات المباحة في حالة الحرب مادامت تحقق المصالح العالية للمسلمين، فهي مباحة بشروطها وإلا فإنها تدخل في دائرة الحرام الذي يؤدي إلى النار.

[6] إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يأخذ الناس بالحسنى، طمعاً منه في إسلامهم، لذلك كان عندما يظفر بأحد الكفار حياً لايستعجل قتله، بل ربما عفا عنه، الأمر الذي جعل كثيراً من الناس يدخلون في الإسلام.

[7] جواز الاستعانة بمعلومات الأسرى، ومن هم في موالاة الأعداء للاستفادة من هذه المعلومات في تحقيق مصالح المسلمين العالية، ومجابهة كل الأخطار المحتملة، ومعاملة الأسرى بالتي هي أحسن، وعدم ضربهم، لأن المعاملة بالحسنى قادت كثيرا منهم إلى الدخول في الإسلام .

[8] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن ينصره، وكان يلح في ذلك، لأن الدعاء هو من لوازم تحقيق العبودية لله، مهما توافرت أسباب النجاح، لأن النصر من الله وإن توافرت أسبابه، فإذا دعا العبد فهذا مما يؤهله للتوفيق في أمره، إن شاء الله.

[9] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعامل الجيش معاملة واحدة دون تمييز، ولايخص بعضهم بميزة عن غيره، فكانوا عنده سواسية كأسنان المشط، العربي منهم والحبشي والفارسي، مما كان لذلك الأثر الكبير في تحقيق العدالة الاجتماعية بينهم، وغرس العقيدة الإسلامية فيهم.

[10] إن الشباب هم عماد بناء المجتمعات والأمم، وعليهم تحمل عبء جسام الأمور، من حروب وبناء وغيرها، لذا يجب الاعتزاز برأيهم إذا رأوا، والسماع لقولهم إذا قالوا، وعدم إهمال عملهم في جميع مراحل الحياة.

[11] إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لايلجأ إلى الفرار أبداً في كل غزواته، وإن اضطر إلى ذلك فإنه يقوم بجرّ الجيش بحكمة دون أن تلحقه خسائر، كما أن الفرار تترتب عليه عواقب وخيمة وخسائر كبيرة في الأرواح والأموال.

[12] إن من الواجب على الجند طاعة ولي الأمر في العسر واليسر، لأن هذه الطاعة تعود بالخير الكثير على السلمين، وإن المخالفة تؤدي إلى التخاذل والتفرق والتشتت والانهزام.

[13] يجب عدم استعمال القُصَر في الحروب، سواءاً كان ذلك كرهاً أم عن رغبة منهم، بل يجب أن يُلحقوا بدور العلم والمعرفة ريثما يقوى عودهم ويساهمون في بناء المجتمعات، كذلك يجب تعليمهم كل ما يحتاجون إليه في هذه الحياة من فنون قتال، وتعلم صناعة، وزراعة، وغيرها.

[14] لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل كل ملوك الدنيا، الذين لهم كل الغنم، وعلى الرعية كل الغرم، ويعيشون في القصور، والرعية في الحصور، بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشارك الصحابة في العمل والجوع والعطش، وهو أشد فرحاً وأطيب نفساً أكثر من كونه لا يشاركهم.

[15] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أتاه خبر نقض العهد ممن عاهده فإنه يرسل إليه رسولاً، يحقق له الخبر، فإذا ثبت له نقض العهد، فإنه يتعامل بالحسم والردع، فإذا اقتضى الأمر إشعال الحرب أشعلها، وقد كان لهذا التدبير الأثر الطيب في المسلمين وسمعتهم.

[16] إن اليهود هم أهل غدر وخيانة، فما من عهد يوقعونه مع المسلمين بالنهار إلا وينقضونه بالليل، وهذا هو حالهم من قديم الزمان إلى يومنا هذا.

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

[1] البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408، هـ - 1988م.

[2] تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)، الناشر: دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية - 1387هـ.

[3] الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة

(مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

[4] الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري (المتوفى: 1427هـ)، دار الهلال – بيروت (نفس طبعة وترقيم دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع)، الطبعة الأولى.

[5] الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: 581هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ.

[6] زاد المعاد في هدي خير العباد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، 1415هـ /1994م.

[7] سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، المؤلف: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: 942هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1993م.

[8] سنن ابن ماجه، لابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

[9] سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

[10] سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، 1395هـ - 1975م.

[11] السيرة الحلبية، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، لعلي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: 1044هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية - 1427هـ.

[12] السيرة النبوية لابن هشام، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: 213هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، 1375هـ - 1955م.

[13] صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

[14] عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (المتوفى: 734هـ)، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1414هـ/1993م.

[15] فقه السيرة، لمحمد الغزالي السقا (المتوفى: 1416هـ)، دار القلم – دمشق، خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة: الأولى، 1427هـ.

[16] فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، لمحّمد سَعيد رَمضان البوطي، دار الفكر – دمشق، الطبعة: الخامسة والعشرون - 1426هـ.

[17] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: 807هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: 1414هـ، 1994م.

[18] المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى،(1411هـ-1990م).

[19] مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2001م.

[20] مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار(المتوفى: 292هـ)، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله وآخرون، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى (بدأت 1988م، وانتهت 2009م).

[21] المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

[22] النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - ومحمود محمد الطناحي.

[23] نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري (المتوفى: 1345هـ) الناشر: دار الفيحاء – دمشق الطبعة: الثانية - 1425هـ.